العلاقة بين الدين والسياسة عند هوبس من خلال كتابه التنين

رضا عزوز*

لقد ترددت في كتابة هذا المقال باللغة العربية ولكن في الأخير استقر الرأي عندي على تحريره باللغة العربية فهذا المقال موجه إلى جمهور ما زال لا يدرك أن السياسة علم له موضوع محدد ويقوم على تقنية خاصة بالتالي فهو مستقل عن الأخلاق والدين ولو أنّ الممارسة السياسية في الواقع لا تفصل بين هذه النشاطات المختلفة. ففي المستوى النظري لا بدّ من تحديد المصطلحات حتى نفهم ما هي السياسة وما هي الحرية السياسية ونخلط بينها وبين الحرية النفسية والحرية الأخلاقية.

وإذا أردنا أن ندرس السياسة كعلم فعلينا أن نرجع إلى أهم مؤسس لهذا العلم في العصر الحديث وهو هوبس Hobbes محللين علاقة الدين بالدولة من خلال كتابة التنين Le Léviathan فهل يمكن أن نفصل الدين عن الدولة إذا كان الدين أساس وحدة المجتمع؟ إذا كانت السياسة وسيلة لعقلنة المجتمع La rationalisation فهل تتناقض مع الدين؟

إنّ الأطروحة التي أريد أن أدافع عنها في هذا المقال هو أن تكوين الدولة يؤدي إلى عقلنة المجتمع والدين وأن عقلنة الدين تكون بتأويله تأويلا أخلاقيا وليس سياسيا. فالدين العقلاني هو الدين الأخلاقي الذي يخضع إلى السلطة السياسية لأنّنا لا نستطيع أن نتصور الأخلاق مستقلة عن النظام السياسي. فممارسة العمل الأخلاقي تقتضي وجود الكيان السياسي :

1) لقد كتب برهان غليون بحثا هاما حول العلاقة بين الدولة والدين ولكن من المؤسف أنه لم يذكر ولو مرة واحدة هوبس Hobbes ولم يتطرق إلى كتابه التنين. Le Léviathan فلا يمكن أن نحدد مفهوم السياسة تحديدا علميا دون أن نرجع إلى هوبس Hobbes ومكيافيل Machiavel وفروند J.Freund. (برهان غليون نقد السياسة الدولة والدين المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1991 الطبعة الأولى).

إنّ تحويل السياسة إلى علم يفترض إمكانية دراسة الإنسان دراسة علمية أي تفسير سلوكه موضوعيا والتنبؤ بنتائجه. ولهذا لم يتسن تكوين هذا العلم إلاّ بعد تكوين العلوم الرياضية والفيزيائية واستبدال التصورات الدينية بالتفسيرات المادية الموضوعية.

* المعهد العالي لأصول الدين - تونس

فالمعرفة العلمية رغم صبغتها اليقينية معرفة فرضية استنتاجية وطبيعة العقل العلمي تكمن في الحساب أي في تحديد التصورات وإيجاد تناسق بينها بحقيقة المعرفة في تناسقها المنطقي وليس في مطابقتها للوجود. فالحساب لا يقتصر على عمليتي الجمع والطرح فهو يشمل عمليات وضع التعاريف والقيام بالبرهنة في المجال الهندسي. إنّ الحساب لا يقتصر على علم الأعداد بل يشمل الهندسة والمنطق والقانون والسياسة. فالعقل حساب والعلم انتقال من التسميات الموضوعة إلى نتائجها.

ولهذا لبلوغ اليقين لا بدّ من اعتماد الطريقة الهندسية القائمة على تحديدات دقيقة ونتائج مستنتجة بطريقة منطقية. إنّ أصل الأخطاء راجع إلى استعمال الألفاظ، فاللغة تؤدي إلى كثير من الأخطاء نتيجة التباس معاني الكلمات فنتصور أشياء لا وجود لها كأن نعطي للألفاظ معان ليست معانيها الأصلية. فالألفاظ موضوع للحساب وأخطاؤنا راجعة إلى كيفية تنظيم الألفاظ وترتيبها.

نستنتج مما سبق أن العقل صناعة لأنه حساب وهذه الصناعة عندما تعتمد على تعريفات دقيقة وتستنتج منها النتائج المطابقة للتعريفات الأولى تؤدي إلى العلم. فالعلم رياضي أي فرض استنتاجي وكثرة العلم تؤدي إلى تكوين الحكمة، أمّا اتساع التجربة فيؤدي إلى الفطنة والفرق بين الفطنة والحكمة أنّ الحكمة يقينية بينما الفطنة ظنيّة.

إنّ ما يرفضه هوبس Hobbes ليس العلم وليس الفطنة وإنما التظاهر بالعلم والتحذلق أي العلم المأخوذ من الكتب والذي لا يستند إلى التجربة.

إنّ اعتبار السياسة كعلم وتقنية مرتبط باعتبار اللغة حسابا. فأساس تصور السياسة مرتبط بتصور المعرفة وتصور اللغة. فالمعرفة تمثل لا علاقة له بالوجود والعلم تركيب للتمثلات ضمن نموذج منطقي قائم على تعريفات دقيقة. وهذا معنى الإسمية Le nominalisme عند Hobbes. فهوبس Hobbes يرفض التسميات التي ليست لها معنى أي ليس لها تعريف كما نجد ذلك في السكولائية La scolastique. فالتسميات التي لها معنى تتعلق بالأجسام وإعراضها والإدراكات الحسية والعمليات الفكرية. ولهذا كان من الضروري عند التفكير تحديد معاني الألفاظ وخاصّة الألفاظ المتعلقة بالفضائل والرذائل مثل الحكمة والخوف والعدل والقسوة... فالخطأ في عدم إدراك النظام الذي يربط النتائج بأسبابها أمّا السخف والهذر فيكمنان في القيام بتعميمات خاطئة مثل القول بوجود جواهر لا مادية أو إرادة حرّة.

إنّ المعرفة العلمية ليست وحيا وإنما هي تركيب للتمثلات ونظام التمثلات ينقسم إلى قسمين: فيكون بمعرفة أسباب الأحداث وهذا القسم مشترك بين الإنسان والحيوان والقسم الثاني يقوم على إدراك آثار الأحداث مسبقا. فانطلاقا من الأحداث نريد أن نتعرف على أسبابها وانطلاقا من الأسباب نريد أن نتنبأ بآثارها. فالعملية الأولى تقتضي التذكر والعملية الثانية تقتضي التنبؤ والفطنة والحكمة.فما يميز الإنسان عن الحيوان يتمثل في الفطنة التي تجعله يتنبأ بالمستقبل اعتمادا على تجربته الماضية.إنّ ما يميز الإنسان عن الحيوان هو إدراك الزمن وخاصة القدرة على تجاوز الحاضر والتنبؤ بالمستقبل اعتمادا على التجربة الماضية. وهذا ما يسميه هوبس Hobbes الفطنة والحكمة. واللغة هي التي تمكن من تسمية الأشياء وتذكر الأحداث الماضية والتنبؤ بالمستقبل. فاللغة لها وظيفتان: تيسير عمل الذاكرة، فالكلمات إشارات تعتمد عليها الذاكرة ولكنها كذلك وسيلة للتواصل تمكّن من معرفة رغبات الإنسان وانفعالاته. فاللغة تمكّن من معرفة علاقة الحاضر بالماضي والمستقبل. فهي أساس الصناعات وهي كذلك أساس التعليم والتعاون بين الناس كما أنها مصدر الأخطاء والأوهام.

نرى إذن أنّ ما يميّز الإنسان ملكته الصناعية أي قدرته على تكوين معرفة دقيقة يقينية تمكّن من التنبؤ بالمستقبل سواء كانت في شكل فطنة أو حكمة. وهذه المعرفة معرفة تقوم على التمثلات من جهة أي أنها مرتبطة بالتجربة ولكنها كذلك تستند إلى نظام منطقي يربط المبادئ بالنتائج. فالعقل عند هوبس Hobbes صناعي لأنه يقوم على طريقة حسابية وليست طريقة إستقرائية. وهذا ما أكده Yves Charles Zarka في كتابة La décision Métaphysique de Hobbes(1) فأساس ميتافيزيقا هوبس Hobbes ليس أرسطيا. فحقيقة المعرفة ليست في مطابقتها للوجود وإنما في تناسقها المنطقي. فالمعرفة طريق للإدراك اليقين وليس طريقا لإدراك الوجود.

ومن هنا نفهم الصبغة العلمية للسياسة. فالسياسة صناعة هدفها تحقيق سعادة الإنسان بإعتماد معرفة علمية للطبيعة الإنسانية. فالمعرفة العلمية للطبيعة الإنسانية تقوم على تفسير السلوك الإنساني كجسم وهذا الجسم تحركه الرغبات والإنفعالات.

يميز هوبس Hobbes بين نوعين من الحركات : الحركة الحية مثل جريان الدم والتنفس والحركة الحيوانية أو الإرادية مثل المشي والكلام وهذه الحركات الإرادية نجدها عند الحيوان. فهي تبدأ بصورة نتخيلها وتؤثر في القلب فتؤدي إلى نوع من الإحساس وهو اللذة. وبداية الحركة الإرادية قبل أن تظهر تسمى جهدا. وعندما يتجه نحو شيء يجذبنا يسمى رغبة أو شهوة. فالإنفعال يفترض حركة الإدراك الحسي لأن الإدراك الحسي حركة ناشئة عن حركة خارجية هي المحسوسات ثم الرغبة ثم الحركة الإرادية. وما يرغب فيه الناس يسمى حبًا وما ينفرون منه يسمى كراهية. فالإنفعالات الأولى هي : الرغبة ثم الحب ثم النفور ثم الكراهية ونستطيع أن نضيف إليها لإنفعالين يدركان النهاية وهما الحزن والفرح. فهذه الإنفعالات هي الإنفعالات البسيطة الأولى التي هي أساس أحكام القيمة.

نرى إذن أن علم السياسة يستند إلى معرفة بالطبيعة الإنسانية أي معرفة بإنفعالات الإنسان لأن مصدرها جسم الإنسان. فهل يستطيع العلم أن يتحرر من أسر هذه الإنفعالات إذا كان معرفة موضوعية ويقينية ؟

أن معرفة الإنسان علميا تكون من خلال عمله وليس فكره. فالذي يحرك سلوك الإنسان ليس فكره وإنما إنفعالاته. ويبين لنا هوبس Hobbes أن الإختلاف بين الأفراد من جهة الفكر يرجع إلى أربعة أسباب :

1) إرادة القـوة
2) إرادة الثروة
3) إرادة المعرفة
4) إرادة الشرف

وهو يرجع كل هذه الأسباب إلى سبب واحد وهو إرادة القوة. فالثروة والمعرفة والشرف أشكال للقوة. فالإختلاف في الفكر يرجع إلى إختلاف في الإنفعالات والإختلاف في الإنفعالات يرجع إلى إختلاف في الأجسام.

وإذا كانت إرادة القوة هي المتحكمة في المعرفة فهدفها إكتساب السلطة. والسلطة مجموع الوسائل التي تحقق خيرات في المستقبل. فهناك سلطة طبيعية مثل تفوق الإنسان في ملكاته

---

1) Yves Charles Zarka, La décision Métaphysique de Hobbes, Edition Vrin

الذهنية والجسمية وهناك سلطة اصطناعية مثل الثروة والجاه والأصدقاء والحظ. فالسلطة تزداد وتنمو بمجرد الحصول على جزء منها وأكبر سلطة هي السلطة السياسية.

إن الرغبة الإنسانية التي تحرك الوجود الإنساني هي الرغبة في القوة. ففي الإنسان رغبة في بلوغ السلطة لا تخمد إلا بالموت. والسلطة لا تكون مؤكدة إلا بالحصول على سلطة أكبر والبحث عن السلطة يؤدي إلى الصراع والحرب. فإذا كانت إرادة القوة أساس السلطة وأساس المعرفة فليس هناك حدّ للسلطة. فكل من بلغت رغباته حدا أقصى فهو قد إنفصل عن الحياة. فالسعادة سعي متواصل للرغبة.

إن هذا الموقف يبين لنا خضوع الفكر للتجربة الجسمية وعدم إنفصال النفس عن الجسم. فالمعرفة العلمية لسلوك الإنسان معرفة علمية بالجسم وإنفعالاته. وقد أدرك هذه العلاقة بين الفكر والجسم لاحقا شوبنهاور Schopenhauer في كتابه Le Monde comme volonté et représentation مبينا أن الفكر وظيفة للدماغ. فليس هناك جوهر مستقل عن الجسم. فالفكر خاضع للإرادة وليست الإرادة شكلا من أشكال الفكر. كما بين نيتشة Nietzsche بعد ذلك أن الجسم هو العقل الأكبر الذي يتحكم في عملياتنا الفكرية. فالسياسة لا تكون علما إلا إذا تأسست على أنتربولوجيا Anthropologie تدرك الإنسان ككائن تحركه الإنفعالات في علاقتها بالجسم وهذه المعرفة معرفة هندسية أي حسابية.

فما العلاقة بين السياسة والدين إذا كانت السياسة في نظر هوبس Hobbes معرفة علمية ؟ إن السياسة معرفة علمية لأنها بالأساس عقلنة للمجتمع وتنظيم للحياة الإنسانية على أساس حماية الحقوق الطبيعية للإنسان. فالقوانين المدنية في نظر هوبس Hobbes ليست قوانين أخلاقية وليست قوانين مدنية دينية لأنها تفترض سلطة الحاكم فهو مصدر التشريع وهو الضامن لتطبيقها. ولكن القانون المدني لا ينفصل عن القانون الطبيعي بما أن غايته تحقيق المساواة والعدل. فغاية النظام السياسي ليس حماية حرية الإنسان فحسب بل كذلك تحقيق العدل. وهذا يقتضى تقييد حرية الفرد بما يسنه الحاكم من قوانين مدنية.

يميز هوبس Hobbes بين الحق الطبيعي والقانون الطبيعي. فالحق الطبيعي يتمثل في الحرية الطبيعية التي يمتلكها الإنسان في الدفاع عن وجوده بكل الوسائل. أما القانون الطبيعي فيكمن في كل القواعد العقلية والأخلاقية التي تمكن من التوفيق بين الإرادات الفردية المختلفة بما يحقق المساواة والعدل.

يتساءل هوبس Hobbes في الفصل السادس والعشرين من كتاب التنين Le Léviathan كيف تتحول القوانين الطبيعية إلى قوانين مدنية ؟ فالقوانين المدنية هي القوانين التي يجب أن يحترمها أعضاء المدينة والقانون المدني La loi civile متأتية عند الرومان من Civitas ويعني الجمهورية. فالقانون أمر يصدره الحاكم لمن يخضع لإرادته. فالقانون بالنسبة لكل مواطن مجمل القواعد التي تحكم الجمهورية للتمييز بن ما هو عدل وما هو ظلم وهذا يفترض :

1) إن المشرع هو الحاكم فهو يمثل السيادة. فمن يمثل السيادة هو المشرع للقوانين.

2) لا يخضع الحاكم إلى القوانين بما أنه يستطيع منع تطبيقها وتغييرها.

3) إن القواعد الأخلاقية والدينية لا تتحول إلى قوانين إلا إذا إستندت إلى سلطة الحاكم.

4) إن القانون الطبيعي والقانون المدني متطابقان. فالقانون الطبيعي يدفع إلى الخضوع إلى

القانون المدني ولا يتحقق العدل إلا بالخضوع إلى سلطة الحاكم. فالقانون الطبيعي والقانون المدني قسمان من القانون الذي يحقق السلم داخل المجتمع.

5) لا يمكن وجود سلطة تشريعية مستقلة عن سلطة الحاكم لأن القوانين أوامر تعبر عن إرادة الحاكم. ووظيفة رجل القانون تطبيق القانون وتأويله وإيجاد تناسق بين مختلف أحكامه. فكل القوانين قابلة للتأويل لكن التأويل الصحيح يستند إلى سلطة الحاكم.

نرى إذن أن السياسة معرفة علمية لأنها تقوم على سن القوانين وتسعى إلى تنظيم المجتمع بصورة تمنع وجود صراع داخله. فأساس السياسة العقل كصناعة رياضية تمكن من سن قوانين تتميز بالتناسق المنطقي والتجانس والدقة. فالقانون المدني والقانون الطبيعي متطابقان وليس هناك عدل إلا بعد وجود سلطة ذات سيادة.

يبين هوبس Hobbes في الفصل الثاني عشر من كتاب التنين Le Léviathan أن الدين مرتبط بطبيعة الإنسان. فالإنسان يسعى إلى معرفة سبب الأشياء وما يطرأ على حياته من سعادة وشقاء كما أنه يريد معرفة سبب وقوع الأشياء في زمن من دون آخر. فلا يكتف بالعيش في الحاضر بل يسعى إلى معرفة المستقبل. إن قلق الإنسان وتفكيره في مصيره يؤديان إلى الخوف وعدم الطمأنينة. فالخوف الناتج عن الجهل بالأسباب أصل تكوين الدين مما يدفع الإنسان إلى إرجاع ما يطرأ على حياته من حوادث إما إلى سلطة خفية أو إلى سبب إلهي أزلي كما فعل الفلاسفة الإغريق. فالدين يرجع إلى حاجة معرفية تدفع الإنسان إلى تفسير سبب تكوين الموجودات وما يطرأ عليها من حوادث. فالإنسان كائن متدين لأنه كائن عارف.

لكن هوبس Hobbes يميز بين الإعتقاد الديني وبين الحاجة المعرفية التي تدفع إلى إفتراض سبب أول. فالإعتقاد الديني يقوم على إفتراض كائنات خيالية تسمى "جوهر لا جسمي" أو "روح لا جسمي" أما الفلاسفة الذين يعتمدون على سبب أولي وأزلي فإنهم لا يبحثون في طبيعة الإله لأنها غير مفهومة. وإذا إعتبرنا ما يصيب الإنسان من سعادة وشقاء يرجع إلى هذه الكائنات الروحية فإن سبب وقوع الحوادث لا يرجع على سبب قريب وإنما إلى إرادة هذه الكائنات مما يلغي الحاجة إلى إعتماد علاقة السببية. إن ما يقيمه الإنسان من طقوس لنيل رضاء هذه الكائنات إنعكاس لما يقوم به من أعمال لإسترضاء أناس آخرين بخضع لسلطتهم. وإذا كانت العلامات التي تنذر بالمستقبل ملتبسة فإن الإيمان بالتأويلات التي يقدمها بعض الأشخاص الذين يحضون بثقتنا تمكننا من التغلب على الشك والقلق. فأصل الدين في نظر هوبس Hobbes الإيمان بالأرواح والجهل بالأسباب القريبة والإحساس بالرهبة أمام ما يخيفنا وإعتبار الحوادث علامات منذرة بالمستقبل. أما إختلاف الطقوس فيرجع إلى إختلاف الأفراد والخيالات والإنفعالات والأحكام.

إن المهم ليس التحليل الإبستمولوجي والسيكولوجي لأصل الدين. فهذا الأصل قد وقع تطويره لتحقيق غاية سياسية وأخلاقية. إن هذا الأصل قد وقع تطويره إما بإبداعات شخصية أو تحت أوامر إلهية ولكن في كلتا الحالتين فالغاية واحدة وهي سياسية وأخلاقية. ففي الحالة الأولى كان الدين جزءا من السياسة الإنسانية وفي الحالة الثانية كان الدين هو الفن السياسي الإلهي. في الحالة الأولى كانت غاية الدين تحديد واجبات الرعية نحو سيدها وفي الحالة الثانية فالسياسة غايتها تحديد واجبات الرعية في مملكة الله.

نرى إذن أن التأويل الذي يقدمه هوبس Hobbes للدين تأويل سياسي وأخلاقي. فهدف الدين تحقيق الخضوع إلى سلطة إنسانية أو إلهية. وفي اللغة العربية كلمة دين تعني الخضوع إلى سلطة

سيد أم أصل كلمة سياسة كما يقول لسان العرب من السوس بمعنى الرياسة وساس الأمر قام به والسوس هو أيضا الطبع والخلق والسجية والسياسة القيام بالأمر بما يصلحه و المقصود بالأمر أمر الناس.

فأصل الدين الجهل بالأسباب وحاجة الإنسان إلى نظام إجتماعي يحقق السلم والعدل. فمؤسسو الأديان قد جعلوا منها شرائع تحقق الخضوع والإنقياد وهذا لا يكون إلا إذا كانت لها صبغة مقدسة وليست وضعية. فكل إنحراف عنها مجلبة لغضب الآلهة. فالدين جزء من النظام الإجتماعي ولكن في الشرائع القائمة على الوحي الإلهي فإن التنظيم السياسي والقانون المدني جزء من الدين كما لا وجود لفصل بين السلطة السياسية السلطة الروحية. فالأرض كلها مملكة الله ولكن يمكن للإله أن يكون ملكا لشعب خاص إعتمادا على العهد الذي قطعه هذا الشعب في الإمتثال لأوامره. فالدين مرتبط بخضوع الناس لسلطة رجل يعتقدون في حكمته وصدقه وحبه.

ولكن ما يضعف الإيمان بالدين هو مناقضة الدين للعقل والأخلاق وعدم وجود تطابق بين الأقوال والأفعال عند الساهرين على أمور الدين وفي عدم الإعتماد على الخوارق لتدعيم الإيمان. وهذا ما حدث لشعب إسرائيل بعد غياب موسى وما حدث لشعب إسرائيل مع صمويل وما حدث في المجتمع الروماني مع إنتشار الدين المسيحي وما حدث لسلطة البابا نتيجة سيطرة الكنيسة على الأمراء المسيحيين. وبإختصار فالدين في نظر هوبس Hobbes ناتج عن جهلنا بالأسباب وخوفنا من المستقبل وله وظيفة سياسية وأخلاقية أي عملية.

إن التمييز بين الدين والسياسة راجع إلى تطور المعرفة العلمية التي تمكن من التمييز بين القانون المدني والقانون الطبيعي والتي تمكن من تأسيس سلطة سياسية قائمة على معرفة بالإنفعالات المتحكمة في الطبيعة الإنسانية. إن الإنفعال الأساسي المتحكم في تكوين الدين والسياسة هو الخوف. فغايتهما تحقيق السلم من خلال وضع قوانين يخضع لها المجتمع. فالقوانين الدينية قوانين مقدسة لها أصل متعال أما القانون المدني فهو قانون تاريخي وإن كان مطلقا أي معبرا عن السيادة الشعبية.

وهذا يفترض تأويلا عقليا للدين. فالدين لا يناقض العقل ولو أنه يمكن أن يتجاوزه. وإذا كان الدين له مضمون عقلي فلأن له غاية سياسية أخلاقية. وهذا ما يسعى إلى تحقيقه علم السياسة. فغاية علم السياسة هي نفسها غاية الدين أي الخضوع إلى النظام الإجتماعي من جهة وتحقيق السعادة من جهة أخرى أي المصلحة العامة. ولهذا السبب فمجال الدين ليس المجال العمومي فهو خاضع للسلطة السياسية.

إن القراءة التي يعتمدها هوبس Hobbes للنص الدين قراءة مقاصدية قائمة على إدراك المعنى الخفي للنص وهو معنى لا يناقض العقل وعلى فهم التناسق المنطقي الداخلي للنص. فالنص الديني له مقصد كلي وهو مقصده الخفي ولا يمكن إدراكه إلا من داخل النص. فهذه الطريقة طريقة علمية تقوم على الحجة وتحدد المعنى الباطن للنص. وهي كذلك طريقة نقدية تبين ما يحتويه النص من آراء ظلامية تناقض العقل. يقول هوبس بزبدبقه :"فليست الكلمات في ذاتها هي التي تعطي حقيقة النص الذي يجب أن يؤول ولكن هدف الكاتب وكل الذين يعتمدون على نصوص معزولة لا يمكنهم إستنتاج أي شيء واضح ولكن بالعكس ذر الرماد على العيون ببعض أجزاء صغيرة للكتاب المقدس

وجعل كل شيء أكثر غموضا مما هو في الواقع. فهذه الطريقة إعتيادية عند اللذين لا يبحثون عن الحقيقة ولكن عن مصلحتهم" (2).

فقيام علم السياسة يقتضي إذن إخضاع النص المقدس إلى الطريقة العلمية. وهذا المشروع هو نفس مشروع سبينوزا Spinoza في كتابه "رسالة في اللاهوت و السياسة" فالكتاب المقدس غايته قيام سلطة سياسية أخلاقية تحقق السلم والعدل داخل المجتمع. فتعاليم موسى وعيسى لها نفس الغاية وهي قيام مملكة أرضية يعيش فيها الإنسان في سلم لأن المحرك الأساسي لسلوك الإنسان المحافظة على الوجود. ثم يمكن للفرد داخل الكيان السياسي أن يكتمل أخلاقيا وأن يسمو معرفيا وروحيا. فالكيان السياسي شرط ضروري لقيام الإنسان بواجباته الأخلاقية والدينية. ومن هنا تكمن أهمية السياسي Le politique في حياة الإنسان.

إن التأويل السياسي والأخلاقي للكتاب المقدس لا يناقض قوانين الطبيعة. فهو "الدين الطبيعي" الذي يقوم على العقل وينشد السلم داخل المجتمع. وإذا كان للدين غاية سياسية فهو لا يفصل بين السلطة الروحية والسلطة السياسية. فهذا الفصل لن يتم إلا بقيام علم السياسة كعلم مستقل. وذلك يقتضي درجة معينة من تطور العلوم وتطور الحياة الإجتماعية والإقتصادية. فمشروع هوبس Hobbes قيام علم السياسة وهذا العلم يقتضي إخضاء الكتاب المقدس للطريقة العلمية وهي طريقة تاريخية نقدية. وإذا كان هذا الفهم للنص الديني هو التأويل اليقيني فإن السلطة السياسية هي التي تقرر ما هي التأويلات التي تنسجم مع المقصد الكلي للدين أي تحقيق السلم وتجنب وجود فتن داخلية. وهذا يعني إخضاع السلطة الروحية لقرارات السلطة السياسية.

إن الكتاب المقدس عندما يؤول تأويلا عقليا لا يناقض قوانين الطبيعة. وهذا ما أثبته هوبس Hobbes من خلال تأويله للنص الديني تأويلا سياسيا وأخلاقيا. فالكتاب المقدس ليس له سلطة في حد ذاته وسلطته مستمدة من السلطة السياسية. فما هي قوانين الطبيعة التي تحدد الدين الحق ؟

فالقانون الطبيعي أمر من أوامر العقل السليم أو قاعدة عامة يستكشفها العقل. فالقانون الأول الأساسي للطبيعة هو الذي يدفع الناس إلى البحث عن السلم والمحافظة على الذات. فالقانون الطبيعي سابق على وجود المشرع وعلى وجود المجتمع المدني. فهو قانون أزلي ثابت. ولهذا جاءت الكتب المقدسة لتأمر به فتكون بذلك النور الذي يساعد الإنسان على الخروج من حالة الطبيعة (حالة حرب الكل ضد الكل) لتأسيس المجتمع والدولة. إن القانون الطبيعي أساس الدين الحق الذي يثبت أن الدين لا يتناقض مع العقل. والقانون الأول للطبيعة هو البحث عن السلم في حين أن بقية قوانين الطبيعة وسائل لتحقيق هذه الغاية. إن هناك نصوصا كثيرة في الكتاب المقدس تؤكد هذا القانون. فالقديس بولس في رسالته إلى أهل رومية ينتقد الذين يتناحرون "وطريق السلام لم يعرفوه". وإنجيل متى يمتدح صانعي السلام ويقول "طوبى لصانعي السلام" الإصحاح الخامس. ويعتبر المسيح "الملك على مملكة السلام" العبرانيين الإصحاح السادس. وهذا القانون يحتم على الناس الخروج من الحالة الطبيعية وهو مرتبط بالحق الطبيعي في المحافظة على الذات.

أما قانون الثاني فيؤكد أن الإنسان لا يبحث عن السلم إلا عندما يجد عند الآخرين نفس الرغبة وهذا ما نجده في إنجيل لوقا "كما تريدون أن يفعل الناس بكم إفعلوا أنتم بهم" الإصحاح السادس.

2) هوبس Hobbes ، المصدر السابق، ص 630

أما القانون الثالث فهو إلتزام الناس بما يبرمونه من مواثيق وبدون ذلك تزول الثقة في العهود ويعود الفراغ من جديد. يقول النبي داود في مزاميره "وقال الجاهل الأحمق في قلبه ليس يوجد إله" المزمور الرابع عشر. فهناك حاجة إلى سلطة سياسية حتى يحترم الناس ما أبرموه من مواثيق. فالعدل في إحترام المواثيق والظلم في خرقها.

لبس هناك حاجة إلى تحليل كل القوانين الطبيعية التي تتطرق إليها هوبس Hobbes فنكتفي بذكر أهمها مثل قانون المساواة وهو القانون التاسع الذي يؤكد بأن الطبيعة الإنسانية قد جعلت المساواة بين الناس شرطا لتحقيق السلم. ونجد في الكتاب المقدس ما يفيد هذه الفكرة. "لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين" إنجيل متّى الإصحاح الخامس. فالقانون المدني يحكم على السلوك الظاهر والمساواة في الحقوق يؤكدها القانون الطبيعي كما جاء في سفر اللاويين "أن تحب قريبك كنفسك". وفي إنجيل متّى "قال يسوع تحب الرب إلهك هذه الوصية الأولى العظمى والثانية مثلما تحب قريبك كنفسك: لهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء".وبصورة عامة فالقوانين الطبيعية تمكن من تحقيق السلم والعدل بمعنى المساواة في الحقوق والعدل في التوزيع.

إن القوانين الطبيعية قوانين كلية تعلو على الفوارق الثقافية والتاريخية وهي شرط تكوين المجتمع وبقائه. فالدين الحق دين أخلاقي يحقق الإحسان ويتجنب الظلم ويضمن إستقرار المجتمع. هذا هو التأويل العلمي للنص الديني.

فالتأويل العلمي تأويل سياسي وأخلاقي وهذا التأويل يفترض نقد مملكة الظلمات. فمملكة الظلمات مكونة من التأويلات الخاطئة للكتاب المقدس. فهذه التأويلات تأويلات ظلامية تطفئ نور العقل وبالتالي نور الكتاب المقدس.

وأبرز مذهب مؤسس لمملكة الظلمات إعتبار الكنيسة الحالية مملكة الله مما يشجع البابا على التدخل في الشؤون المدنية بمنع الآراء التي لا توافق عليها الكنيسة وقد نتج عن ذلك خضوع القوانين المدنية إلى قوانين الكنيسة.

وتظهر مملكة الظلمات عندما تتحول الطقوس الدينية إلى تعزيم وسحر (في التعميد وعند أكل الخبز وشرب النبيذ) وعندما يؤوّل الكتاب تأويلا خاطئا كما هو الحال بالنسبة للحياة الأبدية والموت الأبدي وعند عبادة الأصنام والصور...

يعتبر هوبس نزندقة أن الحاكم هو خير مفسر لإرادة الله ولن يجد الحاكم المسيحي أي صعوبة في التوفيق بين العدالة والإيمان. فطاعة القانون المدني طاعة لقانون الله وحتى إذا أخطأ الحاكم في تأويله فعلى المواطن الخضوع لسلطته. فطاعة الحكام لا تضر بالإيمان لأن الإيمان يستند إلى الحياة الباطنية أما في دائرة الفعل العلني فلا فصل بين "الإله الخالد" و"الإله الفاني" الذي هو الدولة.

يبن هوبس Hobbes في الفصل الثاني والأربعين 42 من كتاب التنين Le Léviathan أن دور الكنيسة ليس الأمر Commander والعقاب Punir والحكم Juger وإنما الإقناع بإعتماد التعليم. والتعليم وضيفة خاضعة للسلطة السياسية. فلا يمكن أن تتحول إلى سلطة مستقلة. إن القواعد التي يتضمنها الكتاب المقدس تعاليم ونصائح لا تتحول إلى قوانين مدنية إلا بالرجوع إلى السلطة السياسية. فتحويل نص ديني إلى نص قانوني من مهام السلطة المدنية. فالإيمان يقوم على الإقناع أي أنه مرتبط بالوجدان ولهذا لا يمكن للسلطة الدينية أن تكون في صراع مع السلطة المدنية. ولهذا

يميز هوبس Hobbes بين القوانين المدنية والقوانين الطبيعية المرتبطة بالوجدان كما يؤكد على الخضوع إلى القوانين المدنية حتى وإن تناقضت ظاهريا مع القوانين الإلهية. فالتأويل الرسمي للكتاب المقدس هو التأويل الصحيح لأن مهمة السلطة السياسية حفظ الأمن داخل المجتمع وهي الغاية الأساسية للقانون الطبيعي. فالقوانين المدنية لا تتدخل في إعتقادات الإنسان وآرائه الذاتية ولكن لا يمكن له أن يتمرد على القانون المدني بإعتماده على تأويله الخاص للنص الديني.

نرى أن مفهوم السياسة عند هوبس Hobbes له معنى علمي يقوم على سيطرة الاصطناعي على الطبيعي. فالطبيعي صناعي والسياسة طريقة لإعادة بناء المجتمع على أساس معرفة علمية بالطبيعة الإنسانية.

فالسلطة السياسية لم تعد سلطة دينية وإنما سلطة مدنية تهدف إلى حماية وجود الفرد وحريته. وإن كان هذا السعي لتكوين سلطة سياسية مدنية قد بدأ منذ أفلاطون وتأكد في الفلسفة الإسلامية مع الفارابي في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" إلا أن السلطة السياسية بقيت مع الفارابي سلطة خاضعة للسلطة الروحية العلمية. فغاية السياسة تحقيق السعادة وبلوغ السعادة لا يكون إلا بتعليم الفضيلة. فنظرة الفارابي للسياسة نظرة تربوية أخلاقية لا تجعل من السياسة مجالا مستقلا له قوانينه الخاصة. لكن السياسة عند هوبس Hobbes لا تقتصر على حماية حرية الإنسان فهذه الحرية حرية مدنية وهي تفترض تلبية الحاجات الأساسية للإنسان وتحقيق العدل. فلا تناقص بين الحرية ومعرفة الضرورة ولا تناقص بين الحرية والسعي لتحقيق السعادة.

إن الحرية لا تقتصر فقط على العيش في سلام والخضوع إلى القوانين المدنية. فالشعب الحر لا يبني دولة أساسها الخوف كما يذهب إلى ذلك سبينوزا .Spinoza فالحرية تقتضي العيش في وئام. وهذا يفترض عدم تحديد حرية التفكير والمعتقد. فالحرية شرط أساسي لتقدم العلوم والفنون وبدون هذه الحرية تضيع الثقة بين الناس ويكثر التضارب بين الأقوال والأفعال.

إن نظرية هوبس Hobbes هي التي أسست ثنائية السلطة والشخص. فالنشاط السياسي له حدود ولا يمكن أن يتجاوز الحقوق الطبيعية للفرد أي أن السلطة السياسية هي الضامنة لهذه الحقوق وإلا تحولت إلى سلطة كليانية. فهوبس Hobbes هو المؤسس للحق الذاتي. فالحقوق الذاتية تتعلق بوجود الفرد كشخص مستقل عن الوجود الإجتماعي. فالحق الذاتي هو حق الشخص قبل دخوله المجتمع. ومن هنا نشأت فكرة معارضة السلطة بإسم الحقوق الطبيعية للأشخاص ورفض إستلاب حرية الفرد لأن حرية الفرد حق شخص سابق لتكوين الكيان السياسي. لكن الحرية السياسية لا تكمن فقط في الفصل بين الذاتي والموضوعي ولكن كذلك في التمييز بين المجتمع المدني والدولة. فالمجتمع المدني يسعى إلى حماية المصلحة الخاصة أما وضيفة الدولة فهي تحقيق المصلحة العامة. "فالمجتمع المدني" هو الوسيط بين حرية الفرد وسلطة الدولة أو هو الذي ييسر نقل الحرية من المجال الذاتي إلى المجال الموضوعي بما يتضمنه من أحزاب سياسية ومنظمات إجتماعية ونقابات تدافع عن حقوق الفرد ومصلحته. ففي الفصل إثنا وعشرين 22 من كتاب التنين Le Léviathan يبين لنا هوبس Hobbes أن السلطة السياسية تسمح بتكوين تنظيمات سياسية خاصة في مجالات مختلفة إقتصادية وتعليمية وإدارية. وهذا يعني أنها تفصل بين المجالين العمومي والخاص لأن هذه التنظيمات لها شخصية قانونية مستقلة. فهذه التنظيمات تمثل ما يمكن أن نسميه "المجتمع المدني" وهو شرط ضروري للحرية السياسية. فالسلطة السياسية تحمي حرية الفرد لأنها سلطة محدودة وليست شاملة.

إن حماية حرية الفرد تقتضى كذلك فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية ورفض خضوع تفكير الناس إلى سيطرة رجال الدين. فهذه السيطرة أدت إلى تكوين مملكة الظلمات الناتجة عن جهل الناس والتأويلات الخاطئة للكتاب المقدس. ولكن لا يستطيع الإنسان في نظر هوبس نزددقهٔ أن يخدم سيدين ولا يمكن للسلطة الروحية أن تنفصل عن السلطة السياسية فلم يبق سوى أن تخضع إحداها للأخرى. فخضوع السلطة الروحية إلى السلطة السياسية شرط ضروري لتحقيق السلم داخل المجتمع وإستقرار النظام السياسي. ولكن ذلك لا يعني أن السلطة السياسية يمكنها أن تتحكم في إعتقادات الناس وآرائهم.

إن الفصل بين السلطة السياسية والسلطة الدينية يفترض وجود علم للسياسية وتأويل عقلي للدين وهذا ما قام به هوبس Hobbes في كتاب التنينLe Léviathanفهوبس قد جعل من السياسة علما عندما بحث في ماهية السياسة فعوض مفهوم السياسة La Politique بمفهوم السياسي Le Politique. فالسياسة نشاط يتغير بحسب الظروف الإقتصادية والإجتماعية والتاريخية أما السياسي Le Politique فماهية ثابتة تعلو على الفوارق بين المجتمعات والثقافات. وأساس السياسي عند هوبس Hobbes المحافظة على النظام وهو يقوم على سيطرة الحاكم على المحكوم عبر ما يسنه من قوانين تحفظ السلم وتحقق العدل. ومن هنا نفهم نقد هوبس Hobbes لأرسطو Aristote. فمن بين التأويلات الخاطئة التي تؤدي إلى "الظلمات" الفلسفة السياسية والأخلاقية لأرسطو. فليس ما هو مناف للعقل مثل ميتافيزيقا أرسطو ولا مناف للدولة مثل سياسة أرسطو. فأرسطو يعتبر أن كل سلطة ليست شعبية سلطة إستبدادية. ولكن أصل كلمة مستبد Le despote في اللغة اليونانية هو الملك. فالنظام الإستبدادي هو النظام الذي يكرهه الناس ويريدون تغييره. ويرى هوبس Hobbes أن الحرية تكمن في كل ما لا يمنعه القانون وأن تطوير العلوم والفنون لا يرجع إلى وجود الحرية ولكن لوجود السلم ووجود أوقات الفراغ. فعظمة أثينا ترجع إلى إنتصاراتها العسكرية وعندما إنتشرت الحرية في المجتمع اليوناني كثرت الفوضى وإندلعت الحروب الداخلية.

أما المقوم الثاني للسياسي Le Politique فهو الفصل بين المجال العمومي والمجال الخاص. فالمجال العمومي هو مجال السياسة. وهذا يعني أن السياسة نشاط محدود لا يشمل كل مجالات الحياة الإجتماعية : المجال الإقتصادي، المجال العائلي والمجال التربوي... خلافا لما يذهب إليه أنصار النظام السياسي الكلياني. والحد الذي يفصل بين المجال الخاص والمجال العام ليس ثابتا. فيمكن للمجال الخاص أن يتوسع بحسب تطور الحياة الإقتصادية والثقافية وهذا ما نجده في النظام السياسي الليبرالي.

أما المقوم الأخير للسياسي Le Politique فهو الدفاع عن المجتمع ضد أعدائه. وهذا يعني أن السياسي يشمل فن الحرب وكيفية مجابهة الأعداء الذين يهددون أمن المجتمع. إن السياسي عند هوبس Hobbes علم لأنه ماهية ثابتة لها مقوماتها الذاتية. ولكن هذه الماهية ليست مفصولة عن الممارسات الأخرى كالدين والأخلاق. فغاية السياسي في الأخير إسعاد الإنسان والسعادة تكون بتحقيق السلم داخل المجتمع وبتحقيق التطور الإقتصادي والعلمي والثقافي وحماية حرية الإنسان وتحقيق العدل... ولكن هل يمكن التوفيق بين الرخاء الإقتصادي وتحقيق العدل ؟ هل يمكن للسياسي أن يحقق الرخاء الإقتصادي دون سيطرة المجتمعات بعضها على بعض ؟ هل يمكن له أن يحقق سعادة البشر في ظل تقلص موارد كوكب الأرض والتفاوت الإقتصادي المتنامي بين المجتمعات ؟ إن غاية السياسة تحقيق المصلحة العامة وهذه الغاية لم تعد اليوم قطرية وإنما عالمية. فحرية الإنسان لا تقتضي إستعباد الآخرين وسعادته لا تقتضي شقاء الآخرين وكما يقول

الفارابي فإن سعادة المدينة الفاضلة تؤدي إلى سعادة المعمورة. وهذا يعني أن السياسة علم مستقل عن الدين ولكن هذا العلم له صبغة شمولية لتعقد المشاكل السياسية. فالسياسة علم وفلسفة علم الوسائل وتفكير فلسفي أي شمولي في غايات العمل السياسي.

المراجـــع

I- المراجع باللغة الفرنسية:

1- Le Léviathan, Trad. F. Tricaud, Ed. Sirey 1971
2- Le Citoyen, Trad. Sorbière, Ed. Sirey 1981
3- Les éléments du droit naturel, Trad. Le Roux, Ed. Hermes 1977
4- La décision métaphysique de Hobbes, Yves Charles Zarka, Vrin 1987
5- Qu'est ce que la philosophie politique, Leo-Strauss, Trad. Olivier Sedeyn, P.U.F. 1992
6- L'essence du politique, J. Freund, Ed. Sirey 1965

II- المراجع باللغة العربية:

1- أراء أهل المدينة الفاضلة، الفارابي، تحقيق د. ألبرنادر ط 2، دار المشرق بيروت 1968

2- هوبز فيلسوف العقلانية، د. إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير والنشر بيروت 1985

3- نقد السياسة، الدولة والدين، برهان غليون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1991 الطبعة الأولى